

رسائل عمر بن الخطاب في تدبير الجيش

د. إحسان هندي

هـ المعلوم أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان من أعدل الخلفاء وأجرأهم في نصرة الحق واغاثة المظلوم ، ولكن الشيء غير المعلوم عنه ، أو الذي لا يعلمه إلا نادرة من الباحثين ، هو موهبته العسكرية ، بل الاستراتيجية إذا صح التعبير ، لأنه كان يسيّر جيوشه لتحقيق أهداف معينة ضمن خطة استراتيجية محددة .

وإذا كانت الدولة العربية في زمنه تضاعفت مساحتها عما كانت في زمن سلفه أبي بكر ، وإذا كانت المراكز التي خاضها العرب في عهده أغلبها - إذا لم نقل جميعها - معارك ظافرة ، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى عبقرية قادة جيوشه فقط ، وإنما إلى خطته الرائعة ووصاياه الحكيمة والشاملة أيضاً التي تنم عن ذهنية موسوعية ووقادة .

فإلى جانب وصيته في (القضاء) التي ما زالت مبادئها صالحة للتطبيق حتى اليوم في مجال أصول المحاكمات والاثبات والبيّنات ، هناك وصايا مشهورة له في مجال تدبير الجيش ، ويأتي على رأس هذه الوصايا ثلاث :

- ١ - وصيته إلى سعد بن أبي وقاص عندما وجهه لفتح العراقيين في أصول التعبئة والمسير باتجاه العدو .
- ٢ - وصيته إلى أبي عبيدة بن الجراح في قوانين الحرب الواجب التقيد بها في مجال التعامل مع العدو .

٣ - وصيته الى قادة الفتوح عند تسليمهم الأعلام بخصوص أخلاقيات الجند .

وما نحن نثبت نصوص هذه الوصايا الثلاث مع شرح ما غمض منها .

★ ★ ★

أولاً - وصية عمر الى سعد بن أبي وقاص في التعبئة :

يقول عمر بن الخطاب في رسالته الى سعد بن أبي وقاص لما وجهه الى فتح العراقيين سنة ١٣ هـ :

« وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يُتعبهم ، ولا تُقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم يُنقص من قوتهم ، فانهم سائرون الى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع^(١) ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم ويرثمون^(*) أسلحتهم وأمتعتهم^(٢) . ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثقت بدينه ، ولا يَرز^(**) أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً^(٣) ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح^(٤) .

وإذا وطئت أرض العدو فأذك^(***) العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم^(٥) . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والفاس عين عليك وليس عيناً لك^(٦) . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم^(٧) وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك^(٨) واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلال ، لا تخص بها أحداً يهوى فيضيّع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك^(٩) . ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو وضعية أو نكاية^(١٠) . فاذا عاينت العدو

(*) رمة : اصلحه . (**) رزاه ماله : اصاب منه شيئاً . (***) اذكى عليه العيون : ارسل عليه الطلائع .

فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك^(١١) ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك وتقاتله^(١٢) وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعمدوك كصنعه بك^(١٣) ، ثم أذك أحراسك على عسكريك وتيقظ من البيات جهدك^(١٤) ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان^(١٥) .

□ حواشي الوصية الأولى :

١ - يطلب عمر من سعد في بداية الوصية أن يترافق بالمسلمين في السير ، وذلك خيفة على جند المسلمين وعلى روحهم المعنوية حيث إن المسافة بين الحجاز والعراق طويلة (نحو ١٥٠٠ كم) والغاية من هذا هي وصول المسلمين الى عدوهم وهم على أحسن حال من النشاط وموفور القوة ، لأن السفر الطويل دون راحة يجعلهم أقل قدرة على القتال من العدو المقيم في أرضه والذي غالباً ما يكون قوياً بجنده وعتاده « حامي النفس والكراع » .

٢ - ثم يوصي عمر سعداً بأن يعسكر بجنده مدة يوم وليلة والمقصود هنا نهار وليلة أي ٢٤ ساعة) في كل أسبوع ، وذلك لكي يعتني الجند بنظامهم وصيانة أسلحتهم ، وهذا نظر صائب فيما نعتقد ، ولا سيما إذا أخذنا في الحسبان المشقة التي كان يسببها السفر في تلك الأيام وتلك الظروف . وبالطبع ليس هناك ما يمنع من اختصار مدة الراحة هذه إذا دعت لذلك أسباب مهمة ، كما حصل لخالد بن الوليد عندما انطلق بجنده من العراق الى الشام ، فقطع المسافة بمدة أسبوع دون أي توقف .

٣ - ويوصي عمر قائده بأن يُبعد أماكن عسكرية جنده عن قرى أهل الصلح (وهم من ارتبطوا بعهد صلح مع المسلمين يسمح بنشر الدعوة الاسلامية في بلادهم مقابل حماية المسلمين لهم وعدم المساس بحريتهم في عقيدتهم وتأدية مراسم عباداتهم) . والغاية من ذلك تجنب اعتداء أحد أفراد جند المسلمين على واحد من أهالي دار الصلح في شخصه أو ماله أو عرضه . وإذا اضطر قائد الجيش الاسلامي لارسال بعض جنده الى بلدة من بلاد أهل الصلح فيجب أن يختار لذلك من يثق الثقة التامة في دينه ، لأن عقد الصلح ينشئ حقوقاً وواجبات

متبادلة ، وفي هذا يقول عمر : « فان لهم حرمة وذمة ابتليتكم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً » .

وهذه العبارة في وصية عمر مشتقة من الآية الكريمة : « **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فاتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين** » (سورة التوبة - الآية رقم ٥) .

٤ - وأما عبارة « ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح » فتحتوي مبدأ يشكل واحداً من أهم مبادئ القانون الدولي في هذا العصر ، إذ إنه لا يجوز لقائد الجيش الاسلامي أن يضحي بأرواح سكان دار الصلح أو بأموالهم أو حتى بحقوقهم المعنوية في سبيل التمكن من الانتصار على سكان دار الحرب (دار الحرب هي الأقطار المتاخمة لدار الاسلام التي لم يرض أهلها الدخول في الاسلام ولا عقد صلح مع المسلمين ، فاذا عقدوا مثل هذا الصلح أصبحوا دار صلح ، وإذا لم يرضوا ذلك بقوا دار حرب ، وإذا فتحت دار الاسلام أراضيهم عنوة يصبحون جزءاً من دار الاسلام) .

وهذا المطلب الأخلاقي يستند بلا ريب الى الأحكام الأساسية في الاسلام ولا سيما الى الآية الكريمة : « **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً** » (سورة الاسراء - الآية رقم ٣٤) .

٥ - ثم يوصي عمر قائد جيشه بأن يعمل بمجرد دخوله أرض العدو الى بث عناصر الاستخبارات (إذكاء العيون) وذلك لئلا يخفى عليه من أمر عدوه شيء . وينصح عمر في هذا المجال بالاستعانة بمدير استخبارات المسلمين أو حتى من أبناء المنطقة المفتوحة « أهل الأرض » بشرط أن يكون من الموثوقين .

٦ - ولكي يكون عنصر الاستخبارات موثقاً ينبغي أن يكون صادقاً ، فهو إذا كان كاذباً أو غاشاً فان ضرره لا بدأكثر من نفعه لأنه قد يكون عندئذ عيناً للعدو أكثر من أن يكون عيناً للصديق ، أو كما يقول عمر نفسه : « **الغاش عين عليك وليس عيناً لك** » ، وبهذا يكون عمر قد فطن منذ ذلك الوقت الى احتمال وجود عملاء الاستخبارات المزدوجين DOUBLE - AGENTS ممن يعملون لنا وللعدو في الوقت نفسه .

٧ - ثم يوصي عمر سعداً بالاكثار من الحذر عند الدنو من جيش العدو ، وذلك بالاكثار من الطلائع والسرايا وهي الوحدات المتقدمة من الجيش . ومهمة (الطلائع) تختلف جزئياً عن مهمة (السرايا) وذلك أن المهمة الرئيسية للطلائع هي الاستطلاع لمعرفة الثغرات الموجودة في جيش العدو « وتتبع الطلائع عوراتهم » .

وأما السرايا فمهمتها الرئيسية هي الاشتباك مع العدو ، ولا سيما القضاء على « إمداداته ومرافقه » قبل وصولها إليه .

٨ - وبما أن لوحات الطلائع مهمات خاصة لذا يجب انتقاء « أهل الرأي والبأس » لها ، وهذا يعني اختيار جندها من الأقوياء الشجعان ذوي التدبير والحيلة ، حتى إذا اصطدم بهم العدو كانت هذه العناصر الجيدة ، المتمرسنة هي أول ما يصطدم به من القوات الصديقة ، وهذا نظر صائب وسليم ، وحكمة لا تزال حتى اليوم واجبة التنفيذ .

٩ - ويجب انتقاء عناصر السرايا بالعناية نفسها ، حيث إن هؤلاء يلزم أن يكونوا من « أهل الجهاد والصبر على الجلال » ، كما يجب أن تُسند قيادتهم إلى أحد الشجعان الميامين . وعلى أمير الجيش أن يتحاشى محاباة أحد أقاربه أو رجال خاصته فيعيّنه لهذه المهمة إذا لم يكن أهلاً لها ، وذلك لأن الضرر الذي سيسببه هذا التعيين يفوق بكثير المنفعة التي يمكن أن تحققها المحاباة والمصلحة الخاصة اللتان دفعتاه لهذا التعيين .

١٠ - وإذا كان أفراد وحدات الطلائع والسرايا من المتمرسين في شؤون الجهاد والجلاد ، فهذا لا يعني أن بوسع الأمير أن يلقي بهم إلى التهلكة ، بل عليه أن يتجنب إرسال طليعة أو سرية في مهمة تتعرض فيها إلى الهزيمة أو الضياع كما يقول عمر في وصيته :

« ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية » .

١١ - وعند حدوث التماس مع العدو ينصح الخليفة عمر أمير جيشه بأن يعمل على تجميع قواته وتقليل جبهة انتشارها ، وذلك لئلا يستفرد العدو بسرية منعزلة في المقدمة أو المجنبة فيقضي عليها بسهولة ، وكذلك للتمكن من حشد كامل القوى الصديقة وزجها في المكان المناسب من جهة أخرى .

١٢ - وينصح عمر سعداً ألا يبدأ هو مُناجزة العدو - أي مقاتلته - وبأن يترك للعدو مهمة البدء بالخطوة الأولى . والغاية من ذلك ليس ترك المبادأة للعدو - كما قد يتبادر الى الذهن - وانما لكي يبصر الأمير « غورة عدوه ومقاتله » - أي نقاط ضعفه - فيوجه قوته الضاربة باتجاهها .

ويبقى للأمير مع ذلك حق البدء بمناجزة العدو « اذا استكرهه قتال » ، أي اذا دعت لذلك ضرورة قتالية معينة ، كأن يستغل فرصة سانحة لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة ، وقديماً قيل « الهجوم خير وسائل الدفاع » .

١٣ - ومن الطبيعي أن الهجوم على العدو يجب ألا يتم الا حسب خطة حربية معينة ، وهذه الخطة يتم وضعها دوماً بمراعاة عدة عناصر أهمها عدد العدو وتسليحه ، وعدد الصديق وتسليحه ، والهدف من المعركة ، والوقت الذي تتم به ، وطبيعة الأرض . وقد ركز عمر في وصيته على هذا العامل الأخير فنصح سعداً بأن « يعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها » ، وذلك لكي تأتي خطته الحربية متلائمة مع المعطيات التي تكفل نجاحها .

١٤ - وأخيراً ينصح عمر قائده أن يأخذ حذره من المفاجآت الليلية : « ويتيقظ من البيات جهدي » ، ويكون ذلك بأخذ الحيطة والاكثار من العسس (الحرس الليلي) وبث الكمائن حول معسكر المسلمين .

١٥ - وينهي الخليفة عمر وصيته بالدعاء لسعد بن أبي وقاص بأن يكون الله وليه - أي نصيره - وولي جنده الذين معه ، وبأن يقودهم الى النصر على العدو وعند لقائهم به ، وقد تمّ هذا النصر بالفعل في معركة القادسية عام ١٤ للهجرة .

★ ★ ★

ثانياً - وصية عمر في شريعة الحرب وقوانينها :

وفي هذا المجال نجد عمر بن الخطاب يوصي قائده أبا عبيدة بن الجراح لما وجهه الى فتح بلاد الشام بما يلي :

« بسم الله وعلى عون الله^(١) ، وامضوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر^(٢) ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله^(٣) ولا تعتدوا ان الله لا يحب

المعتدين^(٤) . لا تجبنوا عند اللقاء^(٥) ، ولا تمثلوا عند القدرة^(٦) ، ولا تسرفوا عند الظهور^(٧) ، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليدًا^(٨) ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حُمّة النهضات^(٩) ، وفي شن الغارات^(١٠) ، ولا تغلّوا عند الغنائم^(١١) ، ونزّ هوا الجهاد عن غرض الدنيا^(١٢) ، وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به^(١٣) ، وذلك هو الفوز العظيم^(١٤) .

— هذا ومن الجدير بالذكر أن عُمراً فاه بوصيته تكاد تماثل هذه في الأحكام والألفاظ أمام الجيش المتوجه الى العراق حين قال :

« بسم الله وبعونه^(١) ، انطلقوا في رعاية الله فانه لا نصر الا منه ومن التمسك بالحق والصبر^(٢) ، قاتلوا في سبيل الله أعداء الله^(٣) ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين^(٤) . لا تجبنوا^(٥) ، ولا تمثلوا^(٦) ، واذا لقيتم النصر فلا تتعدوا الحدود^(٧) ولا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا صبيًا^(٨) .

* * *

□ حواشي الوصية الثانية :

١ — يبدأ عمر وصيته لقائده الأمير على جيش الفتح بأن تكون عمليات الجهاد « بسم الله وعلى عون الله » لأن هذه النية بالذات هي التي تميز « الجهاد الاسلامي » عن الحروب الأخرى ، لأن الحروب العادية قد تستهدف العدوان أو التوسع أو الانتقام أو كسب الشهرة ، في الوقت الذي لا يُسمى فيه الجهاد « جهاداً » الا اذا كان في سبيل الله وباسمه .

٢ — فعندما يكون الجهاد في سبيل الله ونصرة كلمته ، يكون النصر محتملاً ، ولكن بشرط لزوم الحق والصبر . وأهمية الصبر هنا تنبع من أن القتال كريهة ، والكريهة تحتاج الى صبر وجلد حتى يتم النصر (ليس من قبيل المصادفة أن تكون كلمات الجلد والجلاد والتجند والمجالد من اشتقاق واحد في اللغة العربية) .

٣ — ولما كان القتال في سبيل الله فيجب أن يكون ضد من كفر بالله حصراً ، ولهذا لا يجوز قتال المسلم للمسلم الاستثناء ، كحالة قمع العصيان وتأديب قاطعني الطريق ، والقضاء على أعمال الردّة والفتنة .

٤ - ويوصي عمر قادة جنده بعدم الاعتداء ، لأن الله تعالى لا يحب المعتدين (هناك عدة آيات في القرآن الكريم تمنع العدوان وتأمّر بدفعه وتنص على معاقبة المعتدين) . وإذا طبقنا هذه القاعدة على الحروب المعاصرة نستنتج منها ما يلي :

إنّ القرآن يأمر بالدفاع عن النفس : « وقاتلوا الذين يقاتلونكم » ، ولكنه يربط ذلك بمنع الاعتداء : « ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين » ، ومن هنا يمكن الاستنتاج بأنّ الاسلام يحث على القيام بالحرب الدفاعية وبالحرب الوقائية (وهي الحرب التي نهاجم فيها العدو في عقر داره لكي نفضّل هجومه قبل القيام به) ولكنه لا يجيز الحرب الهجومية إلا إذا كان في ذلك مصلحة للدعوة الاسلامية ككل .

وأما بالنسبة للحروب العدوانية LES GUERRES AGRESSIVES وهي التي يكون هدفها الوحيد هو التقتيل والتخريب ، أو التوسع وتحقيق المجد الشخصي ، أو السلب والنهب ، فقد منعها الاسلام بنصوص صحيحة في القرآن والسنة النبوية ، قبل أن تمنعها أحكام القانون الدولي المعاصر عبر القرار الصادر عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بخصوص تعريف العدوان في عام ١٩٧٤ .

٥ - ويوصي عمر بعد ذلك باظهار الشجاعة عند لقاء العدو : « ولا تجبنوا عند اللقاء » لأن الشجاعة هي الطريق الى النصر ، وهي أمر معروف لدى العرب منذ الجاهلية ، وبعد الاسلام .

٦ - والمثلة - أي التمثيل بالجرحى والقتلى - أمر يأباه الاسلام والأخلاق العربية ، ولذا نجد أن الرسول ﷺ قد نهى عنه بقوله : « إياكم والمثلة ولو بكلب عقر » وهذا ما يؤكد عليه عمر في وصيته ، خيفة من أن تدفع شهوة الانتقام بعض المسلمين للتمثيل بالجرحى والموتى من أفراد العدو .

وهكذا يمكن القول ، بل التأكيد ، إن الاسلام منع التمثيل بالقتلى والجرحى (MUTILATION) وعدّه جريمة ، قبل أن تمنعه اتفاقيات جنيف ولاهاي باثني عشر قرناً على الأقل .

٧ - ويوصي عمر المسلمون «بألا يسرفوا عند الظهور»، ومعنى هذا ألا يتعدوا حدود التواضع بعد تحقيق النصر ، لأن هذا النصر من عند الله من جهة ، ولأنه ليس من المصلحة إيفال صدور جند العدو بالتكبر والتعالي والزهو عليهم عند النصر ، من جهة ثانية .

٨ - إن الحرب بين دولتين ليست الغاية منها أن تبديد إحداها الأخرى إبادة كاملة ، وإنما الغاية منها قهرها عسكرياً فحسب ، لذا فإن مبادئ وقواعد القانون الدولي الانساني المعاصر تميز بين (المحاربين LES BELLIGÉRANTS وهم جند العدو وقواته العسكرية وشبه العسكرية و (غير المحاربين) . . وهم أفراد العدو غير المحاربين من كهول ونساء وأطفال .

وقد ميزت شريعة الحرب الاسلامية بين المحاربين وغير المحاربين ، ودعت الى التمسك بالروح الانسانية ، حتى تجاه العدو .

ومن أقوال الرسول ﷺ في ذلك : « أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة » وهذا القول يلخص أفضل تلخيص بنية (القانون الدولي الانساني) الذي يقوم على التوفيق بين الضرورات الحربية (الملحمة) والروح الانسانية (الرحمة) . وبما أن عنصر غير المحاربين يتمثل في المدنيين المسالمين ، ولا سيما الشيوخ والنساء والأطفال ، فقد نهى سيدنا عمر عن قتل هؤلاء صراحة بالقول : « ولا تقتلوا هراً ولا امرأة ولا وليداً » .

٩ - وإذا كان قتل الشيوخ والنساء والأطفال ممنوعاً صراحة في هذه الوصية ، فإن المقصود في ذلك هو «القتل المتعمد» بعد انتهاء المعركة ، وأما قتل هؤلاء عن غير قصد أثناء العمليات الحربية فهو أمر لا يمكن الحيلولة دونه ، حيث إن القذائف التي يرميها المسلمون على جيش العدو ومعسكراته وأهدافه العسكرية لا يمكن التحكم فيها بشكل تصيب به المحاربين دون غيرهم ، ولهذا اكتفى عمر بالقول : « واتقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات » أي عند لقاء العدو واشتداد حدة القتال .

١٠ - والتوقي من قتل الشيوخ والنساء والأطفال يجب أن يتوخاه المسلمون ليس فقط « إذا التقى الزحفان » ، ولكن إذا قام المسلمون بتنفيذ إغارات على

معسكرات العدو وتجمعاته أو كما يقول عمر « وفي شن الغارات » ، ويبقى « التوقي » هنا أخف من « النهي والمنع » الذي تحدثنا عنه في الفقرة (٨) .

١١ - يوصي عمر جنده بعد ذلك « بألا يغفلوا عند الغنائم » ، ومعنى ذلك عدم ارتكاب جريمة « الغلول » ، والغلول هو الاحتفاظ بجانب من الغنيمة وعدم تقديمه الى القسمة الشرعية والتي تكون عادة بمعدل الخمس لبيت المال وأربعة الأخماس الباقية لجملة المحاربين الذين شاركوا في المعركة .

هذا ومن الجدير بالذكر ، أن قانون الحرب المعاصر لم يعد يجيز أخذ الغنائم الشخصية ، وبقي من الجائز أخذ الغنائم من الجيش المحارب باسم دولته ، إذا كانت هذه الغنائم ذات طابع عسكري (عتاد حربي ، خرائط ، خيول ...) ، أو يمكن أن تؤثر في المجهود الحربي .

١٢ - ويوصي عمر جنده بعد ذلك « بأن ينزهوا الجهاد عن غرض الدنيا » وذلك لمنع التجاوزات التي يمكن أن تحدث عندما يكون الهدف من الجهاد غرضاً دنيوياً زائلاً . وهكذا إذا كان قانون الحرب الاسلامي يبيح الغنائم فإنه لا يحلل القيام بحرب في سبيل الحصول على هذه الغنائم فحسب ، لأن جميع الحروب التي لا يكون الهدف منها رفعة الدين والدفاع عن المقدسات تعد ذات أغراض دنيوية زائلة ، ولهذا لا تكتسب طابع الجهاد ولا تأخذ حكمه .

١٣ - وإذا كان المسلمون يخسرون « فوائد مادية » معينة عندما ينزّهون الجهاد عن الأغراض الدنيوية الزائلة ، فإنهم يربحون بالمقابل فائدة دينية كبيرة ، هي الربح الحقيقي ، وفي هذا يقول عمر : « وابشروا بالرباح في البيع الذي يايئتم به » .

١٤ - وأخيراً ينبه عمر رضي الله عنه الى القيام بفريضة الجهاد المكرس لخدمة الله تعالى ودعوته ، والمنزه عن أي هدف من الأهداف الدنيوية فيه الفوز العظيم للانسان ، لأن الآيات القرآنية والسنة النبوية قد أجمعت على فضل الجهاد في سبيل الله ، والثواب الذي يحصل عليه الانسان عند أداء هذه الفريضة على وجهها الشرعي .

● الوصية الثالثة :

وهي وصية كان عمر بن الخطاب يحرص على قراءتها على مسامع قادة الجند عند تسليمهم الأعلام ، وهي تنص خصوصاً على التمسك بالتقوى وعلى أهمية هذه التقوى في ربح المعركة ، ويقول فيها : « أما بعد ، فاني أمرك^(١) ومن معك بتقوى الله على كل حال فان تقوى الله أفضل العدة على العدو^(٢) ، وأقوى المكيدة على الحرب^(٣) . وأمرك ومن معك من الأجناد بأن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم^(٤) ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة^(٥) لأن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم^(٦) ، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة^(٧) ، وألا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا^(٨) . واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم^(٩) ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله^(١٠) ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فقلن يُسلط علينا ، فرُب قوم سلط عليهم شرٌّ منهم كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً^(١١) ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم^(١٢) ، اسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » .

□ حواشي الوصية الثالثة :

١ - يخاطب عمر قائد الجيش بلهجة « الأمر » ، وليس بصيغة النصيحة أو الوصية فحسب ، فيقول : « اني أمرك ومن معك بتقوى الله » . وجاء الأمر بتقوى الله لأن تقوى الله عامة شاملة يمكن أن تتفرع عنها جميع قواعد قانون الحرب وآداب القتال في الاسلام ، وهكذا تشمل التقوى فيما تشمل : العدالة ، منع الظلم ، منع الفساد والاعتداء على الأعراض ، معاملة العدو بروح انسانية ... الخ .

٢ - لمس عمر كبر الحقيقة عندما رأى في تقوى الله أسس الأسس التي يجب أن يتمسك بها المسلمون في حربهم ، لأنها « أفضل العدة على العدو » وهي أساس التماسك والروح المعنوية في الجيش الاسلامي .

٣ - ويرفع عمر « التقوى » من حيث أهميتها في القيادة نحو النصر ، الى منزلة المكائد الحربية التي يقوم بها كل جيش في سبيل الايقاع بالعدو .

٤ - بل ان عمر يأمر قائد الحملة والأجناد الذين معه بأن يكونوا أشد احتراساً من المعاصي من احتراسهم عند لقاء العدو ، لأن قلة الاحتراس عند لقاء العدو يمكن استداركها لاحقاً ، وأما المعاصي فهي وباء يصعب اقتلاعه اذا استشرى في قلب الجند .

٥ - ويتابع عمر وصيته فيبين لقائد الحملة وأفرادها أن ارتكاب العدو للمعاصي هو السلاح الأساسي الذي يمكن جند المسلمين من الانتصار عليه ، وأنه لولا هذا الأمر لكانت الغلبة له . . .

٦ - لأن المسلمين لم يكونوا مساوين للعدو في القوة سواءً نظرنا الى الأمر من زاوية « العدد » أم من زاوية العتاد « العدة » .

٧ - وعلى هذا فان النصر لن يكون حليفاً لجيش المسلمين اذا تساوى مع جيوش الكفار في معصية الله .

٨ - واذا كانت القوة الاسلامية ليست كافية للوقوف في وجه القوة المعادية ، فان تمسك المسلمين بالفضيلة هو السلاح الذي سيتمكنهم من النصر عليهم .

٩ - يجب ألا يخامر المسلمين المقاتلين أي شك في وجود « رقابة عليا » عليهم وعلى تصرفاتهم ، فهناك « حفظة من الله يعلمون كل ما يفعلونه ويقومون به » ، ولهذا يجب أن يخجل هؤلاء المقاتلون من القيام بأي عمل لا يأتلف مع التقوى الاسلامية والأخلاق الاسلامية .

١٠ - ويستخدم عمر هنا سلاح المنطق فيقول : لا يُعقل في جند يحارب في سبيل الله أن يرتكب معصية تغضب الله لأن في هذا قضاء كاملاً على الثواب الذي يحلم به .

١١ - ولا يعفى المسلمون من التقيد بمبادئ الفضيلة والتقوى في حالة منازلتهم لعدو ظالم يرتكب المعاصي ، لأن الله سبحانه وتعالى قد يبلى الظالم بمن هو أشد ظلماً منه ، وذلك كما فعل ببني إسرائيل لما ارتكبوا المعاصي فسلط عليهم من هو أظلم منهم وهو نبوخذ نصر الذي فتك بهم (من المعروف أن الكلدانيين كانوا يعبدون النار ولذلك يشير عمر اليهم باسم المجوس) •

١٢ - ويربط عمر رضي الله عنه أخيراً في وصيته هذه بين نوعي الجهاد : **الجهاد الأصغر** بمنازلة العدو والانتصار عليه و**الجهاد الأكبر** بالتغلب على نزوات النفس وشهواتها فيقول : « أسأل الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم » ، ولا يستثنى نفسه من هذا الدعاء حيث يتوجه الى الله تعالى بقوله : « أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » •

★ ★ ★